

الحمد لله رب العالمين

اللهم اسْعِنْ

صَبَرَتْ صَبَرَتْ

الْجَنَاحُ الشَّفَاعِيُّ

أُمُّ الدُّرَدَاءِ الصَّعْدَى

دَارُ الْزَكَرِيَّا

من - مدن

(٨)

أم الدرداء الصغرى

* قال ابن كثير :
كان الرجال يقرؤون عليها ، ويتلقهمون في الحائط الشمالي بمجمع
دمشق .

* وقال عون بن عبد الله :
كُنْتَ تأْتِي أم الدرداء فتذكّر الله عندها .

* وقال ابن عساكر :
كانت زاهدة فصيحة .

* وقال التووي :
كانت فقيهة حكيمة .

أم الدرداء الصغرى

من سيدات التابعيات :

* إذا ذكرت النساء التابعيات ، فهي - ولا شك - من أبرزهن ، ومن أولى المكانة فيهن وبيهن .

قال ابن أبي داود : سيدة التابعيات : حفصة بنت سيرين ^(١) ، وعمرة بنت عبد الرحمن ^(٢) ، وتليهما أم الدرداء .

* وأم الدرداء صاحبة السيرة في هذه الصفحات ، هي هيجيمة بنت حبي الوصاية ؛ ويقال : الأوصاية ^(٣) ، زوج الصحابي الجليل أبي الدرداء - عوسر بن زيد - رضي الله عنه - .

* وكان لأبي الدرداء - رضوان الله عليه - امرأتان : كل واحدة منها يقال لها : أم الدرداء ؛ وهما : كبرى صحابية ، وصغرى تابعة . وقد تزوجت التابعية بعد وفاة الصحابية . واسم الصحابية : خيرة بنت أبي حذيفه الأسلمية ، لها صحبة ورواية عن النبي عليه السلام ، وقد توفيت بالشام في خلافة عثمان ^(٤) - رضي الله عنها - .

(١) و (٢) اثراً سيرة حفصة بنت سيرين ، وعمرة بنت عبد الرحمن في هذا الكتاب .

(٣) تاريخ دمشق (ص ٤١٨) ، وتهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٣٦٠) ، ومسير أعلام البلاط (٤ / ٢٧٧) .

(٤) توفي أبو الدرداء - رضي الله عنه - في سنة (٣١ هـ) .

* وَأُمُّ الدُّرْدَاءِ الصُّغْرَى ، لِيُسْ هَا حَسْبَجَةٌ وَلَا سَعَاعٌ مِنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَابِعَيْهِ مِنْ سَيِّدَاتِ عَصْرِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ دَمْشَقِ
الشَّامِ .

* * *

رَوَاجِهَا مِنْ أَبِي الدُّرْدَاءِ :

* نَشَأَتْ أُمُّ الدُّرْدَاءِ - رَحْمَهَا اللَّهُ - بِتِيمَةَ فِي حَجَرِ أَبِي الدُّرْدَاءِ
- رَحْمَيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، إِذْ رَبَّاهَا عَلَى حُبِّ اللَّهِ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَحُبِّ النَّبِيِّ
مُحَمَّدِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَحْسَنَ تَبْرِيَّتْهَا كُلُّ الْإِحْسَانِ لِيُعْلَمُ بِمَا عَنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
مِنْ ثَوَابِ لِكَافِلِ الرَّيْبِ .

* وَكَانَتْ تَخْتَلِفُ مَعَ أَبِي الدُّرْدَاءِ إِلَى الْمَسْجِدِ فِي بُرْئَسِ^(۱) تُصْلِي فِي
صَفَوفِ الرِّجَالِ ، وَتَجْمِلُ فِي جَلْقِ الْقُرَاءِ ، وَحَفَاظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، تَعْلَمُ
آيَاتَهُ وَعِلْمَهُ ، وَتَلْقَى التَّلَاوَةَ مِنْ أَفْوَاهِ الصَّحَابَةِ ، وَكَبَارِ الْقُرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ،
حَتَّى خَدَثَ مَمْنُونٌ يَتَقَنُ تَلَاوَتَهُ وَقِرَاءَتَهُ إِتقَانًا رَائِعًا ، وَعَرَضَتِ الْقُرْآنَ
- وَهِيَ صَغِيرَةٌ - عَلَى سَيِّدَنَا أَبِي الدُّرْدَاءِ ، فَأَعْجَبَ بِحَفْظِهَا ، وَدَفَقَةُ
تَلَاوَتِهِ لَهُ ، فَأَكْرَمَ مُثَواهَا ، وَحَثَّهَا عَلَى الْمُضِيِّ فِي هَذَا الطَّرِيقِ الوضِيءِ .

(۱) مِنْ أَنْوَاعِ الْأَلْبَسِ الَّتِي عَرَفَهَا الْمُسْلِمُونَ فِي حِدَرِ الْإِسْلَامِ الْبُرْئَسِ . وَذَكَرَ الْجَوَهْرِيُّ
فِي « الصَّحَاحِ » أَنَّ الْبُرْئَسَ قَلْنَسُوةٌ طَوِيلَةٌ .
وَكَانَ النَّاسُ يَلْبِسُونَهَا فِي حِدَرِ الْإِسْلَامِ . وَقِيلَ : الْبُرْئَسُ كُلُّ ثُوبٍ رَأَسَهُ مَلْزَقٌ
بِهِ دَرَاعَةٌ كَانَ أَوْ جَهَةً .

وَذَكَرَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ الْقِيمِ التَّفِيسِ « الْأَمَّ » (۱۲۶/۲) أَنَّ
الْبُرْئَسَ مِنَ الْمَلَابِسِ الَّتِي مَنَعَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَلْبِسَ الْخَرْمَ فِي إِحْرَامِهِ .

* ولما شبَتْ أمُ الدَّرَداءُ عنِ الطُّوقِ ، اعتزلتْ حِصْفَوْفَ الرِّجَالِ ،
ولحقتْ بِالنِّسَاءِ بإِشارةٍ مِنْ أَنِي الدَّرَداءِ حِيثُ قَالَ لَهَا : الحَقِيقِي بِصَفَوْفِ
النِّسَاءِ .

* وَنَشَأَتْ هُجِيمَةُ - أمُ الدَّرَداءِ - عَلَى حُبِّ الْعِلْمِ ، وَالشُّغْفِ
بِالْعِبَادَةِ ، وَطَلَبِ الزَّهْدِ ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَبَاهَا بِنَعْمَةٍ مِنْ كُلِّ
الْعُقْلِ ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهَا بِالْمُحْسِنِ وَالْمُحَمَّلِ .

* وَلَمَّا بَلَغَتْ مِيلَعَ النِّسَاءِ ، قَرَوَّجَهَا أَبُو الدَّرَداءِ ، وَمِنْهُ أَخْذَتْ كِتَابَهَا
- أمُ الدَّرَداءِ - ، فَاضْحَتْ مُشْهُورَةُ بَهَا ، وَكَادَتْ تَغْطِي عَلَى اسْمِهَا
الْحَقِيقِي هُجِيمَةَ .

* وَأَخْذَتْ أمُ الدَّرَداءِ تَعْلَمَ مِنْ زَوْجِهَا ، فَرُوِثَ عَنْهُ عِلْمًا جَمِيعًا ،
رَفَعَهَا إِلَى مَصَافِ الْعَالَمَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْفَقِيهَاتِ فِي عَصْرِ التَّابِعِينَ مُمْهَى
تَرَكَنَ الْأَصْحَاحَ الْأَثَارِ الْكَرِيمَةِ فِي صَفَحَاتِ النِّسَاءِ .

* * *

مِنْ أَخْبَارِهَا مَعَ زَوْجِهَا :

* عَلَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَعَلَى الْخُصَالِ الْحَمِيدَةِ ، نَشَأَتْ أمُ
الدرداء ، فـكـانـتـ مـثـلـ الزـوـجـةـ الصـالـحةـ ذاتـ الـقـدوـةـ الـحـسـنةـ لـغـيرـهـاـ منـ
النـسـاءـ ، فـقـدـ كـانـتـ تـصـغـيـ لـكـلـ مـاـ يـقـولـهـ زـوـجـهـاـ ، وـتـسـمـعـ إـلـىـ نـصـائـحـهـ
الـتـيـ تـدـمـ الـمـودـةـ بـيـنـهـمـ ، فـاسـمـعـ إـلـىـ وـاـحـدـةـ مـنـ هـذـهـ النـصـائـحـ طـهـاـ :

يا أم الدرداء ، إذا غضبت أرضيتك وإذا غضبت فأرضيتي ، فإليك

إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ فَمَا أَسْرَعَ مَا تُفْتَرِقُ .

* وكانت هذه الكلمات ملء سمعها ، فكانت تحسن إلى أبي الدرداء ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، فهي تعلم مكانته من رسول الله ﷺ ، كما تعلم مكانته الرفعة بين الصحابة الكرام ؛ إذ هو عالم من أعلامهم – رضي الله عنهم جميعاً .

* وقد تعلمت أم الدرداء – رحمها الله – القناعة ، والاعتداد على النفس ، من ذلك ما روتة عن إحدى نصائحه لها في هذا المضمار التفيس فقالت :

قال لي أبو الدرداء : لا تسألي أحداً شيئاً .

فقلت : إن احتجت ؟ .

قال : تتبعي الحصادين ، فانظري ما يسقط منهم فخذليه فاخبطيه ، ثم اطحنيه ثم اعجننيه ثم كليه ، ولا تسألي أحداً شيئاً^(١) .

* وحدّثت أنْ أبا الدرداء كان يجيء بعدهما يصبح فيقول : أعنديكم خداً ؟ فإنْ لم يجد قال : فانا إذا صائم^(٢) .

* وكانت أم الدرداء – رحمها الله – تُكثِر هذه الصفات في زوجها ، فكانت تبتهل إلى الله عز وجل أن يجعلها معه في الجنة فقد ورد أنها قالت :

(١) تاريخ دمشق (ج ٤٢٦) ، وسير أعلام النبلاء (٢٧٨/٤) .

(٢) المعرفة والتاريخ للسوسي (٦٦/٢) .

* اللهم إِنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ خَطَبَنِي فَتَرَوْجِي فِي الدُّنْيَا ، اللَّهُمَّ فَأَنَا أَخْصُبُهُ
إِلَيْكَ ، فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَزَوَّجْنِي فِي الْآخِرَةِ .

فقال لها أبو الدرداء : فإن أردت ذلك ، فكنت أنا الأول - أي مثلك - فلا تتردجي بعدي .

فمات أبو الدرداء فخطبها معاوية فقالت : لا والله ، لا أتزوج زوجاً في الدنيا حتى أتزوج أبي الدرداء إن شاء الله في الجنة ، فإني سمعت أبي الدرداء يقول :

سمعت النبي عليه السلام يقول : « المرأة للآخر من أزواجها » ولست أريد بأبي الدرداء بدلاً ، وإنما سألت أبي الدرداء أن يسأل الله عز وجل أن يجعلني زوجته في الجنة .

فبعث إليها معاوية - رضي الله عنه - أن عليك بالصوم ، وطلبت أم الدرداء على العهد إلى أن لقيت الله عز وجل .

* * *

في رحاب الرواية :

* لا عجب أن نجد امرأة كأم الدرداء بلغت منزلة كبيرة في الفقه والتفسير والعلم ، إذا علمتنا أنها تلقت معارفها عن كبار الصحابة وفي مقدمتهم زوجها الإمام القدوة ، قاضي دمشق ، وصاحب رسول الله عليه السلام أبو الدرداء أحد حكماء أمّة الإسلام وسيد القراء بدمشق ، ومنهن

جَمِيعُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ^(١) فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرَوَى (١٧٩) حَدِيثاً عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَفِيهِ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « حَكِيمٌ أَمْتَنِي عُوْيَكَرٌ » .

* ولم تقتصر أم الدرداء في تحصيل علومها عن زوجها فحسب ، بل روت عن سلمان الفارسي ، وأبي مالك الأشعري واسمه كعب بن عاصم ، وأبي هريرة ، وفضلة بن عبيد – رضي الله عنهم – ؛ كما روت عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها وأرضهاها – .

* وتخرج من مدرسة أم الدرداء عدد من أكابر العلماء وجلة التابعين منهم : جعير بن نعير ، وأبو قلابة الحرمي ، ورجاء بن حبيرة ، ويونس بن ميسرة ، ومكحول الشامي^(٢) ، وغيرهم كثيرون جداً .

(١) عن أنس رضي الله تعالى عنه : هات النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ يَحْمِلُ الْقُرْآنَ غَيْرَ أَرْبَعَةَ : أَبُو الدَّرَداءَ ، وَمَعَاذَ ، وَزَيْدَ بْنَ ثَابَتَ ، وَأَبُو زَيْدَ . أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٤٨٩ وَ٤٧٩) فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ . وَأَبُو زَيْدٍ : هُوَ سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النَّعْمَانَ الْأَنْصَارِيِّ . وَمِنَ الْمُحْدِيِّ بِالذِّكْرِ وَالْمُفَدِّدِ أَيْضًا ، أَنَّ الْفُضْرَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِصْنَافٌ لَا حَقِيقَةَ ، فَقَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ جَمِيعَ الْجَمِيعِ الْغَيْرِ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ سَرَّدَ أَسْمَاءُهُمُ الْخَاطِفُ أَبُنْ حَسْرٍ – رَحْمَةُ اللَّهِ – فِي فَتحِ الْبَارِيِّ (٤٧٩ – ٥٣) فَلِيَرَاجِعَ .

(٢) مكحول بن أبي سلم ، أبو عبد الله الدمشقي : فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث ، أصله من فارس ، رحل في طلب الحديث إلى العراق ومصر والمدينة وغيرها ، ثم استقر في دمشق . قال ابن يونس : كان فقيهاً عالماً ، واتفقوا على توثيقه . وقال أبو حاتم : ما أعلم بالشام أفقه من مكحول . توفي بدمشق سنة (١١٢ هـ) وقيل (١١٨ هـ) رحمه الله تعالى .

(تهدیب الأصحاب واللغات : ١١٣/٢ و ١١٤) ، و (الأعلام : ٢٨٤/٧) .

* وروى لها الإمام مسلم في صحيحه ، وكذلك أبو داود ، والترمذى ، وأبن ماجه في سننهم ^(١) .

* وفي طبقاته ذكرها ابن سُمِيع في الطَّبِيقَةِ الثَّانِيَةِ من تابعي أهل الشَّام .

* * *

مَمَا رَوَتْهُ أُمُّ الدُّرَداءِ :

* عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال :

قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مَعَايِقَ بَدْنَهُ ، آمَنَّا سِرْبَهُ » ، عند هذه قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا . يا بن جعشن ، يكفيك منها ما مدد جو عنك ، ووارى عورتك ، وإن كان ثواباً يواريك فذاك ، وإن كان دائمة تركبها فتح ، فلَقُّ الخير ، وماءُ الْجَرْ ، وما فوق ذلك حساب » ^(٢) .

* ومن مروياتها التي تدل على فقهها وعلمهها بالسنَّةِ المُطَهَّرَةِ ، ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث صفوان بن عبد الله بن صفوان – وكانت تحنة الدرداء – قال :

قدمت الشَّام ، فأتتني أبا الدرداء في منزله فلم أجده ، ووجدت أم الدرداء فقالت : أتريدُ الحجَّ العامَ ؟

(١) الأعلام (٧٧/٨) .

(٢) جامع الأصول (١٣٥/١٠) و « قلن الخير » هي بكرة ، و « الْجَرْ » : جمع مفردتها الجرة ، وهي آية من خبر .

فقلت : نعم .

قالت : فادع الله لنا بخير ؛ فإن النبي عليه السلام كان يقول : « دعوة المرء المسلم لأنبيه بظاهر الغيب مستجابة ؛ عند رأسه ملوك موكل ، كلما دعا لأنبيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ولدك يمثل » .

قال : فخرجت إلى السوق فلقيت أبا الدرداء فقال لي مثل ذلك ،
يرويه عن النبي عليهما السلام (١) .

* وأخرج الإمام مسلم أيضاً بسنده عن أم الدرداء قالت : حدثني
رسدي - تعني أبا الدرداء - أنه سمع رسول الله عليهما السلام يقول : « من دعا
لأنبيه بظاهر الغيب قال الملك الموكل به : آمين ، ولدك يمثل » (٢) .

* * *

صور من عبادتها وطاعتها :

* كانت أوقات أم الدرداء - رحمة الله - كلها محمرة بالطاعة
والعلم والعبادة ، وكان بيته موئلاً لكل متسلّم أواب ، وكل فقيه مجتهد ،
وكل امرأة عايدة . وكان كثير من العباد والزهاد يأتونها ليأخذوا عنها العلم
وال الحديث ، ويدركوا الله سبحانه وتعالى .

* قال ابن كثير رحمة الله تعالى : كان الرجال يقرؤون عليها
ويتفقهون في الحافظ الشعالي بجامع دمشق (٣) .

(١) أخرجه مسلم (٨٦/٨٧ و ٨٧) باب : فضل الدعاء للMuslimين بظاهر الغيب .

(٢) أخرجه مسلم (٨٦/٨) .

(٣) البداية والنهاية (٥٠/٩) .

* وهذا أحدُ علماء التَّابعِينَ الْكَفَاتُ وهو عوْنَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ :
كَتَأْتَى نَائِي أُمِّ الدَّرَدَاءِ فَنَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَهَا .

* أُمِّ النِّسَاءِ فَكَنْ يَصْرُفُنَ أَوْقَاتَهُنَّ عِنْدَ أُمِّ الدَّرَدَاءِ بِالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ ،
قَالَ يُونُسُ بْنُ مُيسِّرَةَ : كَنْ - النِّسَاءُ - يَتَعَبَّدُنَ مَعَ أُمِّ الدَّرَدَاءِ يَقْعُدُنَ
اللَّيلَ كُلَّهُ حَتَّى إِنْ أَقْدَامَهُنَّ قَدْ اتَّفَحَتْ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ .

* وَوَاصَلَتْ أُمِّ الدَّرَدَاءِ عِبَادَتَهَا بِالصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ ، فَلَمْ تَكُنْ تُرِي إِلَّا
وَهِيَ سَاجِدَةٌ فَانْتَهَى ؛ وَعَنْ مِوَاصِلَتِهَا لِلصَّلَاةِ يَقُولُ مِيمُونُ بْنُ مَهْرَانَ : مَا
دَخَلْتُ عَلَى أُمِّ الدَّرَدَاءِ فِي سَاعَةٍ صَلَاةٍ إِلَّا وَجَدْتُهَا مُصْلِيَةً .

وَوَصَفَ الْإِمامُ مَكْحُولُ الشَّامِيَ صَلَاتِهَا قَوْلًا : كَانَتْ أُمِّ الدَّرَدَاءِ
تَجْلِسُ فِي صَلَاتِهَا جَلْسَةُ الرَّجُلِ وَكَانَتْ فَقِيهَةً .

* وَكَانَتْ أُمِّ الدَّرَدَاءِ - رَحْمَهَا اللَّهُ - كُلُّمَا زَادَتْ فِي الْعِبَادَةِ وَالزَّهْدِ ،
ازْدَادَتْ تَواضِعًا وَتَقْنِيًّا ، رَوِيَ هَذَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبْلَةَ قَوْلًا : قُلْتُ لِأُمِّ
الدَّرَدَاءِ : ادْعُنِي لَنَا .

قَالَتْ : أَوْ بَلَغْتُ أَنَا ذَلِكَ ؟ ! - تَرَى أَنَّهَا لَيْسَتْ أَهْلًا لَهَذَا .

* وَلِأُمِّ الدَّرَدَاءِ وَقَفَاتْ لَطِيفَةً وَرَائِعَةً مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، تَشِيرُ إِلَى
تَدْبِيرِهَا لِمَعَانِيهِ وَفَهْمِهَا لِآيَاتِهِ ؛ فَعَنْ أَبِي عُمَرِ الْأَنْصَارِيِّ قَوْلًا : كَنْتُ
أَقْوَدُ دَابَّةً أُمِّ الدَّرَدَاءِ فِيهَا بَيْنَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَدِمْشَقَ ، فَقَالَتْ لِي : يَا
سَلِيْمانَ ، أَنْسِيْعِ الْجَيْلَانَ مَا وَعَدَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

قَالَ : فَأَرْفَعْ صَوْتِي بِهَذِهِ الْآيَةِ : ﴿وَيَوْمَ نَسِيْرُ الْجَيْلَانَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً﴾ [الْكَهْفَ] : ٤٧ .

* ومن وقفاتها الـ١٨ مع القرآن ، ما رواه سعيد بن عبد العزيز قال :
أشرفت أم الدرداء على وادي جهنم - موضع - ومعها إسماعيل بن
عبيد الله ، فقالت : يا إسماعيل أقرأ ، فقرأ : ﴿أَفَحسِبْتَ أَنَا خَلَقْنَاكُمْ
عَبْنًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون : ١١٥] فخَرَّتْ أمُ الدرداء
على وجهها ، وخرّ إسماعيل على وجهه ، فما رفعا رأسهما حتى ابتلَّا
نُخْتَ وجهيهما من دموعهما .

* وفي مجال الصَّرِّ والطَّاغَةِ ، والتسليم لله عز وجل ، كانت أم
الدرداء من الف Cure الصابرة الرَّاضية ، ويدلُّ على هذا ما ذكره عنها يحيى بن
معين رحمه الله قال :

ماتت الدرداء قبل أم الدرداء ، فلما دفنتها قالت : اذهب إلى ربِّك ،
وأذهب إلى ربِّي ، فدخلت المسجد .

* * *

تَعْلِيمُهَا لِلنَّاسِ :

* من المآثر الكريمة لأم الدرداء ، حرصها الشديد على مجالس
العلم ، والحضر على حضور مجالس العلماء ومذاكرتهم ، فعن عون بن
عبد الله قال :

جلستنا إلى أم الدرداء ، فقلنا لها : أملتناك ؟ !

فقالت : أمللتُموني ! لقد طلبتُ العبادة في كل شيء مما أصبت
لنفسِي شيئاً أشفي من مجالسة العلماء ومذاكرتهم ، ثم احببت وأمرت

رجلًا أَنْ يَقْرَأُ ، فَقَرَأَ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلَنَا لِهِمُ الْقَوْلَ لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٥١] .

* وكانت تَحْتُ مِنْ عَنْدِهَا عَلَى الْعَمَلِ ، وَعَلَى قَبْوِ الْهَدِيَّةِ ، وَتَرْشِدَهُمْ إِلَى صَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَتَوَجِّهُ جَمِيعَ طَبَقَاتِ النَّاسِ تَوْجِيهَاتٍ لِطِيقَةٍ فِي ضَلَالِ الشَّرِّ النَّبُوَّيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ ، وَشَهَدَ لَهَا بِهَذَا عَثَّانُ بْنُ حَيَّانَ فَقَالَ :

سَمِعْتُ أُمَّ الدُّرْدَاءَ تَقُولُ : إِنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعْطِي عَلَيْهِ ذَهَبًا وَلَا دِرَاهِمًا ، وَإِنَّمَا يَرْزُقُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَمِنْ أَعْطَى شَيْئًا فَلِيَقْبِلْ ، فَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فَلِيَضْعِهِ فِي ذِي الْحَاجَةِ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَلِيَسْتَعْنِ بِهِ عَلَى حَاجَتِهِ ، وَلَا يَرْدُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى رِزْقَهُ الَّذِي رَزَقَهُ (١) .

* وكانت أُمُّ الدُّرْدَاءَ - رَحْمَهَا اللَّهُ - تَرْى أَنَّ تَسْبِيحَ اللَّهِ عَزُّ وَجَلُّ أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ ، وَهَذَا كَانَتْ تَحْتُ عَلَى الإِسْكَارِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزُّ وَجَلُّ فِي الصَّلَاةِ ، وَالصِّيَامِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَتَرْشِدُ إِلَى تَعْرِيفِ الذَّكْرِ بِكَلَامِ يَقْطُرُ حَكْمَةً وَمَوْعِظَةً فَتَقُولُ :

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ، وَإِنْ صَلَيْتَ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزُّ وَجَلُّ ، وَإِنْ صُمِّتَ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزُّ وَجَلُّ ، وَكُلُّ خَيْرٍ تَعْمَلُهُ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزُّ وَجَلُّ ،

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٠) تراجم النساء، وسير أعلام النبلاء (٤/٢٧٨ و ٢٧٩).

وكل شر تجتبه فهو من ذكر الله عز وجل ،
وأفضل ذلك قسميع الله عز وجل ^(١) .

* ولم تكن أم الدرداء تدخل بالنصيحة على أحد ، لا في سفر ولا حضر ، وكانت تزرع الورع في نفوس سامعيها بطريقة تدعوه إلى العلم والعمل على حفظ كتاب الله عز وجل ، حدث عن هذه الحصال الكريمة فيها أبو زكريا الحزاعي فقال :

خرجنا في سفر ، فصحبنا رجل ، فقالت أم الدرداء له : ما يمنعك أن تقرأ ، أو تذكر الله عز وجل كما يصنع أصحابك ؟ .

قال : ما معنِّي من القرآن إلا سورة ، وقد رددتها حتى أذربتها أشبعتها حفظا .

قالت : وإن القرآن ليُذْبَر ! ما أنا بالتي أصحبُك ، إن شئت أن تتقدم ، وإن شئت أن تتأخر .

فَضَرَبَتْ دابته وانطلقت .

ثم صحبنا رجل آخر ، فقال : – يعني أبو زكريا الحزاعي – يا أم الدرداء دعاء كان يدعو به : اللهم اجعلني أرجو رحمتك ، وأنخاف عذابك ؛ إذ يأمنك من لا يرجو رحمتك ولا يخاف عذابك ، وأسألك الأمان يوم يخافون .

فقالت أم الدرداء : أكتبه ، فكتبه .

(١) تهذيب الأصحاء واللغات (٣٦١ / ٢) .

* ومن خلال أعمالِ أمِ الدَّرَدَاءِ الْيُومِيَّةِ ، كانت تعلم الناس
وتذكرهم بفضائل الأعمالِ ، من ذلك ما وردَ عن عثمان بن حيَّان قال :
أكلنا مع أمِ الدَّرَدَاءِ طعاماً ، فاغفلنا الحمدَ للهُ ؟ فقالت : يا بني لا تدعوا
آنَ تأديموا طعامكم بذكر الله عز وجل ، أكلَ وحمدَ خيرٌ منْ أكلَ
وحيضت .

* * *

مِنْ فَرَائِدِ حِكْمَهَا وَمَوَاعِظِهَا :

* لا عجب أن تجري الحكمة على لسان أمِ الدَّرَدَاءِ عذبة رائعة ،
فقد تخرجت من مدرسة حكيم الأمة أبي الدرداء - رضي الله عنه - ،
وقد أثرت عنها كلامات رائعة رقت معانيها وراق لفظها ، من أمثلة ذلك
قولها :

أَفْضَلُ الْعِلْمِ الْمَعْرِفَةُ .

* وقد كتبت لواحدٍ من تلاميذهما في لوحه هذه الحكمة البليغة :
تعلّموا الحكمة صغراً ، تعلّموها كباراً - أو تعلّموا بها كباراً - ، وإن
كل زارع حاصدٌ ما زرع من خيرٍ أو شر^(١) .

* ومن نفائس أقوالها في ذم الدنيا والتحذير من سحرها وزخرفها ،
قولها :

الْدُّنْيَا أَسْخَرَ لِقَلْبِ الْعَبْدِ مِنْ هَارِوتْ وَمَارِوتْ ، وَمَا آثَرَهَا عَنْ قَطْ

(١) تهذيب الأصناف واللغات (٣٦٠/٢ و ٣٦١).

إلا صرعيه - أذلته - .

* ومن حكمتها في الحياة الاجتماعية ما ورد أنها عوّبت في شيء،
فقيل لها : لم كذا وكذا ؟

قالت : نقص الناس فنقصت كما نقصوا .

* ومن أبدع موالعطفها ، وأنفع أقوالها وتجاربها ما أورده الرمخشري في
« ربيع الأبرار »^(١) أنها قالت :

من وعظ أخاه سراً فقد زانه ، ومن وعظه علانية فقد شانه .

* وعن شهير بن حوشب عن أم الدرداء قالت :
إنما الوجل في قلب ابن آدم كالحرق الشموعة ، أما تجده لها
شعريرة ؟ .

قال : بلى .

قالت : فادع الله عز وجل إذا وجدت ذلك فإن الدعاء يستجاب
عند ذلك .

* ومن أقوالها البديعة في الحكمة ، ما قالت في علاج القلوب
القاسية ، فقد قال لها رجل : إنني لا أجد في قلبي داء لا أجد له دواء ،
وأجد قسوة شديدة وأملاً بعيداً ، قالت : اطلع في القبور ، واشهد
الموتى .

(١) (٣٢/٥) .

* وَأَتَاهَا هَشَامُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْخَزَوْمِيَّ فَقَالَ لَهَا : مَا أَوْنَقَ حَصَالَكَ فِي
نَفْسِكَ ؟ .

قَالَتْ : الْحُبُّ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١) .

* * *

ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ عَلَيْهَا :

* حَظِيتْ أُمُّ الدُّرَدَاءِ - رَحْمَهَا اللَّهُ - عَلَى شَهَادَاتِ مُوقَعَةٍ مِنْ أَكَابِرِ
الْعُلَمَاءِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهَا لِتَقْدِيمِهَا فِي الْمُعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْفَضَائِلِ .

* فَقَالَ مَكْحُولٌ - رَحْمَهُ اللَّهُ - : كَانَتْ أُمُّ الدُّرَدَاءِ فَقِيهَةً .

* وَقَالَ ابْنُ عَسَاكِرٍ : كَانَتْ زَاهِدَةً فَصِيقَةً .

* وَقَدْ وَصَفَهَا التَّوْوِيُّ بِقَوْلِهِ : كَانَتْ زَاهِدَةً فَقِيهَةً .

وَقَالَ أَيْضًا : كَانَتْ فَقِيهَةً حَكِيمَةً .

* وَأَورَدَ ابْنُ كَثِيرٍ تَرْجِمَتْهَا وَوَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : تَابِعِيَّةً ، عَابِدَةً ، عَالَمَةً ،
فَقِيهَةً .

* وَنَعْتَهَا الذَّهَبِيُّ بِقَوْلِهِ : السَّيِّدَةُ الْعَالَمَةُ الْفَقِيهَةُ ، وَأَشْتَهِرَتْ بِالْعِلْمِ
وَالْعَصْلِ وَالرَّزْهَدِ .

* وَأَمَّا ابْنُ حَمَانَ فَقَدْ ذَكَرَهَا فِي الثَّقَاتِ وَقَالَ : كَانَتْ مِنْ
الْعَابِدَاتِ .

(١) تَارِيخُ دَمْشَقٍ (ص ١٠٨) .

* وقد أجمع العلماء والمؤرخون على وصفها بالفقه ، وهذه الصفة من أعظم الصفات التي تجتمع في الإنسان ، إذ إنَّه مَنْ يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُ فِي الدِّينِ .

* * *

من أخبارها مع عبد الملك :

* كانت أم الدرداء - رحمها الله تعالى - معظمة عند بنى أمية ، تحظى باحترام خلفائهم ، وقد رأينا كيف كان سيدنا معاوية يجلسها ويحترمها .

* أما عبد الملك بن مروان ، فكان يجلس في حلقتها مع المتفقهة يشتغلُ عليها بالعلم وهو خليفة^(١) ، وكان كثيراً ما يجلس في مؤخر المسجد بدمشق يستمع إلى أم الدرداء - رحمها الله - .

* ولأم الدرداء أخبار كثيرة مع عبد الملك بن مروان ، وفي بعض هذه الأخبار ما يدلُّ على فراستها وذكائها ؛ فقد قالت لعبد الملك يوماً : ما زلت أتخيلُ فيك هذا الأمر مذ رأيتك .

قال : وكيف ذاك ؟ !

قالت : ما رأيَتْ أحسن منك محدثاً ، ولا أعلم منك مستمعاً .

وعبد الملك بن مروان خليفة الدنيا في وقته ، كان يستفيد من حديثها ، وإذا ما بدرت منه هفوة من المفوات كانت أم الدرداء الناسكة

(١) البداية والنهاية (٥٠/٩) .

العالمة التُّقِيَّة تصحح له ذلك بالحجج والحكمة والموعظة الحسنة .

* ورد عن زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء فكانت عنده ، فلما كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل ، فدعى خادمه ، فكأنه أبطأ عنه ، فلعنه ، فلما أصبح قالت له أم الدرداء : قد سمعت الليلة لعنت خادمك ! .

قال : إله أبطأ عني .

قالت : سمعت أم الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا يكون اللعنون شفعاء ولا شهداء يوم القيمة »^(١) .

* وكانت لأم الدرداء - بعد وفاة زوجها - عادة منتظمة في حياتها ، إذ كانت تقيم ستة أشهر في بيت المقدس تعلم وتتعبد في المسجد الأقصى الذي بارك الله عز وجل فيه وحوله ، وتقيم ستة أشهر أخرى في دمشق الشام موطنها الأصلي .

* وهي حلال إقامتها في بيت المقدس تسمى باحترام عبد الملك لها ، فلقد رُؤى عبد الملك جالساً في صخرة بيت المقدس ، وأم الدرداء معه جالسة ، حتى إذا نودي لل المغرب قام عبد الملك ، وقامت أم الدرداء تتوكل على عبد الملك حتى يدخل بها المسجد ، فإذا دخلت جلست مع النساء ، ومضى عبد الملك إلى المقام فصلى بالناس^(٢) .

(١) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، والحديث في جامع الأصول لابن الأثير (٧٥٧/١٠) .

(٢) تاريخ دمشق (ص ٤٣٥) ، وسير أعلام البلا ، (٤/٢٧٩) ، والأعلام (٧٧/٨) .

* ومن الأخبار التي تتصل بهذا ما روتته نفسها أنَّ رجلاً أتاهها فقال :
إِنَّ رجلاً قد نال منك عند عبد الملك .

فقالت : إِنْ تُؤْنِنَنِي - فَتُعَذَّبَنِي - مَا لِي فِيهَا ، فَعَلَمَنَا رُسْكِنًا بِهَا
لَيْسَ فِيهَا^(١) .

* * *

وَدَاعًا أُمَّ الدَّرَداء :

* في سنة إِحدى وثمانين من الهجرة الْشَّرِيفَةِ ، أَدْتَ أُمَّ الدَّرَداءَ
فِرِيضَةَ الْحَجَّ ، وَلَا فَرَغَتْ مِنْ حَجَّهَا عَادَتْ إِلَى دَمْشَقَ .

* وفي سنة (٨٢ هـ)^(٢) وافَتْ أُمَّ الدَّرَداءَ الْأَجْلَ الْمُتَحْوَمَ ، وَلَقِيتْ
رَبَّهَا بِمَوْطِنِهَا فِي الشَّامِ .

* وفي مقبرة باب الصَّغِير بدمشق يتوبي جثمان أُمَّ الدَّرَداءَ إِلَى جانبِ
زوجها أبي الدرداء - رضي الله عنه - ، إِذْ أَنَّ قبره معروف بباب
الصَّغِير .

قال التَّوْرَيْثُ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : وَقَبْرُ أُبَيِّ الدَّرَداءِ وَقَبْرُ زَوْجِهِ أُمِّ
الدرداء الصَّغِيرِ بباب الصَّغِيرِ مِنْ دَمْشَقِ مَشْهُورٌ^(٣) .

* ولعله من المقيد أنْ نذكر هنا مِنْ دُفْنِ باب الصَّغِيرِ بدمشق من

(١) تهذيب التهذيب (٤٦٦/١٢).

(٢) البداية والنهاية (٥٠/٩).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢٢٨/٢).

النساء الصحايات ؟ فقد قال الحافظ ابن حطرون – وهو محمد بن علي الدمشقي الصالحي المؤرخ العالم الفقيه – : وقيل باب الصغير قبر بلال بن حمامة – رضي الله عنه – ، وثلاث من أزواج النبي ﷺ وقبر فضة جارية السيدة فاطمة الزهراء ، وقبر أم الدرداء ، هؤلاء كلهم في قبرة واحدة .

* رحم الله أم الدرداء ، وألحقها بالصالحين .

* * *